علم النفس الحضاري في فكر ابن خلدون ومالك بن نبي
بين استخدام المنهج النفسي والعضوي في التفسير

Psychology Civilizational in the thought of Ibn Khaldun and Malik bin Nabi between the use of the psychological and organic method of interpretation

حيرش سمية
جامعة وهران2 محمد بن احمد (الجزائر)
heireche.soumya@univ-oran2.dz

تاريخ الاستلام: 2020/11/23 تاريخ القبول: 2021/01/30 تاريخ النشر: 2021/08/01

ملخص:
إن اهتمام ابن خلدون بتفسير مسألة السنن الكونية، باعتبارها قانون حركة الأشياء والموجودات الحية بما فيها الحضارات التي تأخذ حياتها طريق القدر والموت، حيث ربط ابن خلدون فكرته في تفسير الحضارة والعمران بالعوامل العضوية لدورة حياة الكائن الحي و إذا اعتبر "ابن خلدون" أن لدورة التاريخ الإسلامي الحضارية نفس هذه الدورة المتكررة للحياة وللموت التي يستحيل على الدول والحضارات والأحياء الانفلات من سريان هذه القوانين، مفاد ذلك أن للعمران قدره الحتمي ينتهي عنده، مثل حتمية أعمار البشر.إن مالك بن نبي يؤمن بعودة الحياة بعد الانقطاع والموت و بقانون الأنفس في إمكانية الحركة والتغيير بعد الانقطاع التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يعيد المحاولة من جديد على اعتبار أن سنة التغيير تظل قائمة، و أن الحضارة يمكن أن تنطلق من جديد إذا توفرت الشروط النفسية لها، انطلاقا من فكرته أن التاريخ يخضع لقانون النفوس باعتبار أن الظاهرة القرآنية مثلت في لحظة من لحظات التاريخ، الميلاد النفسي للحضارة الإسلامية ، حيث أن حتمية التغيير المرتبطة بهذه السنن أصبحت اختيارا يتحدد في أعماق النفوس.

الكلمات المفتاحية: الاعتقاد- الإيمان- العصبية- التاريخ- السلوك.

Abstract:

When ibn khaldun related his idea to the civilization with the obligation of destiny circle to the indefinite life of civilization in its condition to the obligation of the definite life circle of the human beings . and if Ibn Khaldun considered the Islamic historical life as the same human beings life repetitively. That one which there is no space from the state and the civilization as well, as that the humans have to obey to its rules and nature, that 's why the states and civilizations have the power of nature which they finished too, And as this obligation human's life. When, Malek Bennabis still faith in the civil psychological will in the change that the humans could try again through it in the sense of Sunna of faith in change which is still tuned, and that civilization can accelerate again if psychological conditions are container. The Muslim nation keep going with Malek Bennabis's in the question of it's interpretation of psychology in civilization starting from the point that, history obeys to the psychological circumstances law of the human being. This Coranic phenomenon presented in once upon a time in history, Brings the psychological birth of Islamic civilization, where the change obligation was related to this Sunan and which become a choice decided deep inside self.

Keywords: Belief_ faith _asabiyah_ history_ comportment.

مقدمـــــة

إن استعمال الاقتراب النفسي لتفسير ظاهرة الحضارة في مظاهر حركتها الإنسانية الروحية و المادية، يحيلنا إلى عملية تعقل وتعقب هذا الفعل الحضاري، من خلال ما نسميه بالمقدرة الحيوية للغيب وفاعليته على تنشيط الأنفس، ومن ثم قوته على نقل الفرد من مجال الإيمان إلى مجال العمل والتغيير.

إن كل حقيقة غيبية مطلقة تختزن في داخلها جينات حضارية، حيث أن انبعاث ضياء وهج النفس الإنسانية المؤمنة في التاريخ يوحي بحضور زمن الحضارة و انبعاثها من جديدة باعتبار الحضارة ظاهرة نفسية وتكررها في لحظات قياسية من الزمن ثم لتأخذ وجهة القدر الفتور ثم الانطفاء، الحركة والكمون تلك الوجهة القدرية للحضارة عندما يزول ويتهاوى صلبها النفسي التي تنتهي وتتوقف عندها الحضارة الإنسانية بانطفاء ضياء الإيمان والروح.

الحضارة بين كونية القدر و باعث السُنَّنٌ النفسية:

الحضارة هي تلك التمثلات والتصورات الميتافيزيقية الكونية لحقائق الأشياء والتي تأخذ هذه المطلقات أشكال وصور مظاهر الحياة الاجتماعية، الروحية والفكرية المادية والثقافية للجماعة الإنسانية يتأثر بها النسق الاجتماعي ككل ويزود الأنساق الفرعية الأخرى بهذه الحقائق الكونية كالنسق السياسي والأسري والديني والثقافي والاقتصادي والرؤية الحضارة هي قدرة الجماعة على تفسير رؤيتها المطلقة للواقع وعلى تحويل الحقائق الأبدية إلى أشياء محسوسة.

أما السنن الكونية هي قوانين الحركة الأبدية للأشياء، وهي تحمل في معناها الحسي، حركة الموجودات عندما تأخذ طريق الحياة متجهة في سيرها نحو مصيرها القدري.

أما الحضارات فهي تشبه في حركتها التاريخية، حركة الأشياء لتأخذ نفس مسار الأشياء والموجودات نحو قدرها الذي تندثر وتزول عنده بفعل عوامل عضوية (الأشياء) ونفسية(الحضارات).

يدفعنا هذا الإشكال الفلسفي للاقتراب من ظاهرة الحضارة ، من خلال فكر ابن خلدون ومالك بن نبي في تفسيرهما لظاهرة الأمم وحركة الشعوب من خلال البواعث النفسية لهذه الحضارات، باعتبارها نتاج لظاهرة روحية عصبية عند ابن خلدون، اعتقاديه وإيمانية عند مالك بن نبي، أن كل حضارة هي نتاج مادي، زمني لمفعول روحي هو الاعتقاد، الذي يبدأ عنده الإنسان بالفعل الحضاري المجسد، لحظة تدفق الوعي وخروجه من ذاته للتفاعل مع العالم بفعل دفع الروح له من مجال الإيمان إلى مجال العمل والسلوك الحضاريين.

إن مالك بن نبي، انطلاقا من فكرته أن التاريخ يخضع لقانون النفوس، يفسر التدافع الحضاري للأمم والشعوب بين لحظتي السقوط والنهوض (المداولة الحضارية) بالعوامل النفسية للبشر.

ذلك أن فكرة المداولة الحضارية كما طرحها مالك بن نبي، هي علاقة تبادلية طردية بين متغيرين اثنين، كلما زاد أحدهما بمقدار معين يزيد الآخر بمقدار يتناسب مع زيادة الأول، والعكس صحيح. إن السنة الإلهية الموجودة في الآية الكريمة ﴿ إن الله لا يغير بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[1]، سنة تشمل جميع البشر، وليست خاصة بالمسلمين أو بشعب من الشعوب دون الأخرى، باعتبار أن هذه السنن لا تؤثر مباشرة على عملية التاريخ، ولكن هذه السنن من العوامل التي تدخل في نطاق التأثير المباشر على عملية التغيير.

إن الإشارة إلى الطابع الغيبي الأخروي للسنن التاريخية باعتبارها استجابة لقوة باطنية تنطلق من الأنفس وباعتبار الإنسان محور حركة التاريخ. ذلك أن حركة التغيير الشاملة التي يحدثها (المطلق) الله سبحانه وتعالى وفعل الحركة الجزئية في نطاق هذا التغيير المتفرد الذي أسنده إلى القوم، مجال الحركة سيكون استجابة لمجال التغيير ما بأنفس القوم (الأفراد)، إن الله سيغير بالقوم شريطة إن هم غيروا بأنفسهم، إذا تم التبدل والتحول والحركة الجزئية التي ستحدث في أحوال ما بأنفس القوم.

حيث أن حركة (حياة) العوالم الكونية، الحضارية والمادية مرتبطة ارتباطا طرديا بالعوالم النفسية والروحية والفكرية للإنسان، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]، متى ما وجد هذا الشرط (شرط الأنفس)، يقترن معه الجزاء الكوني في وجوده المادي الزمني الاجتماعي. العلاقة السببية بين العلة الفاعلة، القاعدة الأخلاقية للإنسان (الاعتقاد الديني طريقا للإيمان والعمل والمبادرة) ، والعلة الغائية في الكون﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[3].

إن هذا التغيير الذي شمل عوالم الأنفس الفردية قد ارتبط في درجة تأثيره بالبيئة التاريخية لشبه الجزيرة العربية، مما أدى إلى ميلاد الحضارة الإسلامية، بفعل الضوابط الروحية للقيم الغيبية المحركة لبواعث التغيير، حيث أن حتمية التغيير المرتبطة بهذه السنن أصبحت اختيارا يتحدد في أعماق النفوس، إمكانية الحياة مرة أخرى بعد لحظة الموت المؤقت للعقل وللحضارة، لحظة تمطي الروح التاريخ (الركب الحضاري) بتدارك الشعوب لمخزونها الروحي واستعانتها به كوقود للتغيير، هذا ما حدث مع الحضارة الإسلامية، عندما قبضت لحظة الجزيرة العربية عصا التاريخ كما يقول مالك بن نبي.

---

[1]- سورة الرعد، الآية 11.

[2]- سورة الأنفال، الآية53.

[3]- سورة الصف، الآية 2.

انطلاقا مما سبق، نشير إلى لحظة اندماج العقل الكوني (المطلق) في التاريخ، تحول المطلق إلى حياة عملية، حيث أن فعل الاعتقاد في الدين يدفع إلى العمل، الفكرة الدينية فور تحولها إلى سلوك وبمجرد حصولها على الاعتقاد التي تفضي إلى ترسيخه عن طريق العمل، فالدين أيا كان يجب أن يصل بصاحبه إلى الله من خلال تأثيره الإيجابي في سلوكه، ذلكم إن لم نتحول إلى زهاد فكيف نرسخ الروح بالاعتقاد في الفرد فضلا عن المجتمع، ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[4].

إن العلة الفاعلة (الأنفس)، قد ارتبطت ارتباطا قصديا في علاقتها الكونية بالعلة الغائية، كما تجلى ذلك في القرآن الكريم، فالغائية باعتبارها موضوع هذه السنن الإلهية، تأخذ من حيث دلالة المعنى فعل الجزاء[5]، هي وضع ظاهري للبشرية ويقصد بها التمكين والاستخلاف في الأرض، فكل تجمع بشري متاح له أن يُمكَن في الأرض، عمارة الأرض، هذا التعريف لا يتحيز على بيئة جغرافية دون أخرى، ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾[6]، بعملية من الإمداد الإلهي (النُصرَة، التصرف الإلهي الباطني في النفس، أو الظاهري الحسي) ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [7] هذا من جهة، ومن جهة أخرى في ارتباطها من حيث النشاط والعمل بالعلة المادية (المجتمع والبناء الحضاري) . إن هذا التفسير للسنن التاريخية في القرآن، لا تنطبق مع فكرة التفسير اللاهوتي المسيحي للتاريخ كما كان الحال مع القديس أوغسطين مثلا.

إن مالك بن نبي ظل يؤمن بالإرادة الحضارية النفسية في التغيير الذي يستطيع الإنسان من خلاله أن يعيد المحاولة من جديد على اعتبار أن سنة التغيير تظل قائمة،﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[8]، وبالتالي فإنه لا وجود لحتمية تاريخية خارجة عن إرادة الإنسان.

إن كل سلوك حضاري يخرج من أعماق النفوس كما يؤكد مالك بنبي باتجاه الأرض يخضع في حركته لقانون الميلاد، الأوج والأفول بين طوري الأفول النازل (مرحلة الغريزة)، وقوع الدولة في طور الهرم والاضمحلال عند ابن خلدون، و النهضة الصاعدة (سمو الروح) عند مالك يتوسطهما طور انتشار الحضارة وتوسعها (مرحلة العقل) ، إذ تبدأ الحلقة الأولى بظهور فكرة دينية، ثم يبدأ أفولها بتغلب

---

[4]- سورة التوبة، الآية 105.

[5]- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق،1987، ص209.

[6]- سورة الجن، الآية 16.

[7]- سورة الأنعام، الآية 115.

[8]- سورة آل عمران، الآية 110.

جاذبية الأرض عليها بعد أن تفقد الروح ثم العقل وإذ فقدت الروح والعقل دخل الإنسان عند مالك بن نبي في المرحلة السياسية بالمعنى السطحي لكلمة سياسة، مما يعرض الحضارة للأفول والسقوط، وهو ما وقع في الحضارة الإسلامية لما خلد المسلمون إلى الأرض ووهنت روحهم[9].

إن الحضارة الإسلامية قد خرجت من عمق النفوس، كما يقول مالك بن نبي كقوة دافعة، إلى سطح الأرض تنتشر أفقيا من الشاطئ الأطلنطي إلى حدود الصين، وهكذا وجدنا الحضارة الإسلامية تتوسع وتنتشر فوق الأرض، تتغلب على جاذبيتها بما لديها من مخزون روحي، حتى إذا ما وهنت فيها قوى الروح وجدناها تخلد إلى الأرض شيئا فشيئا"[10].

يرى مالك بن نبي" أن التاريخ يتطابق مع المبدأ القرآني في تأثيره التاريخي للحضارة سموا و سقوطا"، ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[11]، ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾[12].

إن هذا التفسير القرآني لقصدية الحقائق الكونية لفعل لسنن ، هو ما أشار إليه ابن خلدون في القرن الرابع عشر، عمر الحضارة بالطبع الامتدادي للعصبية، فالدولة كما كشف ابن خلدون، تقوم بقوة العصبية وتهرم بفسادها، باعتبار العصبية ظاهرة طبيعية تلازم المزاج الحيواني للروح العدوانية الكامنة في الجماعة بفعل الوازع الرمزي المغذي لهذا الالتحام والمرتبط بأمور العيش، إما من نسب أو دماء أو دين، " لبسوا جلدتها كأنها عصبتهم"، "الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق أو ولاية أو أثر عظيم "[13].

حيث يرى ابن خلدون أن الدعوة الدينية تصرف "طبيعتهم العدوانية"، من عصبية مفرقة إلى عصبية جامعة " إن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم" كما يقول[14].

يتفق مالك بن نبي مع فكرة ابن خلدون حين يشير في كتابه شروط النهضة، أن للغيب دور أساسي في بناء الحضارة، سواء كان غيبا إلهيا أم أرضيا عبارة عن مثل (مطلق) أعلى اجتماعي وبشري، فميلاد الحضارة هو عمل جاد وكدح مستمر توجه فيه الشعوب طاقاتها الاجتماعية نحو أهدافها الواقعية، وتكون مسددة بعمل غيبي فبناء الحضارة وتحقيق النهضة يتم عبر تركيب الكتلة المخصبة من الإنسان

---

[9]– مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر المعاصر للنشر والتوزيع، دمشق، 1986، ص 66.

[10]– مالك بن نبي، شروط النهضة، ص53.

[11]– سورة آل عمران، الآية 137.

[12]– سورة الإسراء، الآية 77.

[13]– عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، لجنة البيان العربي للنشر والتوزيع ،القاهرة، 1965، ص466.

[14]– عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص 456.

والتراب والوقت (فكرة الزمن الذي يتصل اتصالا وثيقا بالتاريخ)، في لحظة تسود فيها الروح، لأنها تلعب دور المركب (catalisateur) في تركيب عناصر التاريخ، باعتبارها مواد راكدة تبعث فيها الروح الفكرة الدينية، فالحضارة هي ترابط بين مجال حيوي بيولوجي حيث يتشكل هيكلها، وبين مجال الفكرة حيث تولد روحها"[15].

تتوقف الحضارة عن سيرها نحو الحياة الأبدية، لحظة انقطاع الإنسان عن بنائه الفكري للعالم، وانصرافه عن لعب دوره الميتافيزيقي الأخلاقي بما له من مخزون روحي في هذا الوجود في تفاعله مع هذا العالم ومع الواقع الذي يعيش فيه.

ينطلق مالك بن نبي لبناء تصور عقلي يوصلنا إلى طريق الحضارة مجددا بمثال يقيس عليه لحظة دخول الحضارة الإسلامية التاريخ، وكما حصل في وادي الأردن أو في غار حراء. فمنذ تلك اللحظة وثبت قبائل شتات وشكلت وحدة متناسقة، ورحلت إلى التاريخ بفعل فكرة دينية دافعة استوطنت قلوب أناس بسطاء مازالت تؤطرهم البداوة، فغمرتهم الروح وتراءت لهم الأنوار، فانطلقوا يبنون الحضارة ويقودون العالم إلى التقدم والرقي[16].

كما يرى مالك بن نبي أن معركة صفين كانت نهاية سيادة العامل الروحي في الإسلام ليحل مكانه العامل العقلي الذي ينتهي بنهاية الموحدين، ثم تنحدر الأمة إلى مستوى الغريزة، وبمعركة صفين تغير اتجاه الدولة في الإسلام: من الخلافة والشورى إلى حكم عضوض، ولكن لما أفلتت الروح تحولت الحضارة إلى قيصرية تزينها الأبهة والعظمة الفردية، وبذلك بدأت الحضارة الإسلامية تغادر عمق النفوس كقوة دافعة، ودخلت في طور الانحدار والهبوط سماها مالك بن نبي بلحظة " الوهن".[17].

نفس الظاهرة الإيمانية شهدتها الحضارة المسيحية، حين امتزج قدرها الحضاري بعلو ضميرها الديني في تفاعل لفكرتها الدينية بالروح الخلقية السامية عند القبائل الجرمانية، ذلك الطموح الذي كان يهز أوروبا، هذا ما جذب فكر بن نبي عندما بحث عن المبدأ الذي يقف وراء الشعور الذي أتاح لأوروبا أن تخلق وتبلغ حضارتها؟ وكيف تغيرت نفسيتها، باعتبار أن مركز ثقل الحضارة قد تزحزح عن مكانه وتحول بالنهضة والإصلاح الديني من مجال الروح إلى مجال العقل.

إن حل معضلة هذا التراخي في الإمساك بالمطلق (انبعاث القيم الكونية) و بناء الحضارة من جديد، كما يرى بن نبي، يتمثل في تكامل ثلاث عناصر أساسية هي: إحياء الثقافة الفاعلة والتوجيه

[15]- مالك بن نبي، شروط النهضة، 60.

[16]- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص96.

[17]- مالك بن نبي، شروط النهضة، ، ص70

العقلاني للعمل الجاد، وتوجيه رأس المال [18]. إن الإنكسار الحضاري الحاصل في المجتمع الناشئ كما يرى مالك بن نبي لم يكن من ناحية اقتناء الأشياء، وإنما هذا الانحطاط الحضاري يتمثل في الجوانب التربوية، اعتبار التربية وسيلة للتدريب على الوقت كغاية ذات قيمة حضارية. إن لحظات الخطر التي تحدث في التاريخ يتم إدراك أهميتها بأهمية الوقت الذي يوازي في قيمته قيمة الحياة عندما تقترب من اندثارها ، تستيقظ هذه الغريزة في مدة ساعات التي تحدث فيها انتفاضات الشعوب ، فالوقت كما يرى مالك بن نبي لا يقوم بالمال، بل بساعات العمل، العملة الوحيدة المطلقة التي لا تبطل، ولا تُستورد بعد ضياعها، ولكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة ولا تستعيدها إذا مضت [19].

أشار كل من ابن خلدون، ومالك بن نبي عن لحظتي التفسخ والانحلال الحضاري، حين ينكَسِفُ وجه الحضارة وتُحجب شمسها، بانكسار روح المؤمن وضعف الإيمان بفعل عوامل الترف والتكديس والمجد وفنون الملاذ، حينها تتوقف عند لحظة معينة، لحظة السكون والركود المؤقتين، عند مالك بن نبي، حينما يسود الجهل بسنن التغيير وتغيب الفكرة لصالح عالم الأشخاص لتقع في أسر عالم الأشياء، فإنها حتما ستنهار حضاريا، لحظة الموت والانطفاء القدري للعمران البشري عند ابن خلدون، "فالدولة كما يكشف ابن خلدون، كالكائنات العضوية لها عمر محدود ونهاية محتومة. فإن الهرم إذا حل أو نزل بالدولة لا يرتفع، وأنه (الهرم) مثل الأمراض المزمنة التي تصيب المزاج الحيواني، لا يمكن دواؤه ولا ارتفاعه، فإذا أدرك الدول، فإنها تأخذ في الضعف والتناقص، من جهة الأطراف، ولا يزال المركز محفوظا، إلى أن يتأذن الله بانقراض الأمر جملة، فحينئذ يكون انقراض المركز، وما يحدث عند آخر عمر الدولة كما يقول ابن خلدون، قوة توهم أن الهِرَم قد ارتفع عنها ويومض ذُبالها إيماضة الخلود، كما يقع في الذُبال المشتعل، فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال وهو انطفاء[20]، ليختم ابن خلدون بنظرة تشاؤمية للتاريخ الإسلامي لا فرصة فيها للتغيير، لقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[21]، ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾[22].

لكن لن يتوقف الزمان الكوني عند هذه اللحظة عند فيلسوف الغرب "نيتشه"، حتى لا يهرب أي شيء من قدر الموت تحت مسمى قانون الحركة إذ أنه سيبدأ من جديد دورة أخرى لا تختلف عن سابقتها في أي شيء، وعندما يأتي نهاية عمرها ستبدأ الدورة من جديد وبنفس الحركة التي سبقتها ، ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ

[18]- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص146

[19]- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص186-187.

[20]- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، 1965، ص294.

[21]- سورة الأعراف، الآية 34.

[22]- سورة الحجر، الآية 4.

فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[23]، ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾[24]، ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[25].

للتاريخ أنفاسه البطولي شهد عليه الزمن و تألقت على مسارح أرضه أمم وشعوب، وحضارات شامخة شاخت توقف بها الزمن عند نقطة الموت، فانقطعت عن التاريخ،﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾[26].

لقد انتبه ابن خلدون إلى خطورة الترف والنعيم في دمار الدول وتفككها وانحلالها الذي هو قاتل للعمران ومهلكها، " من عوائق الملك حصول الترف والدعة والسكون وانغماس القبيل في النعيم، إن (الترف) عامل هدم العمران وكاسر للعصبية التي بها قوام العمران، وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على الشهوات منها، قد تلوثت نفوسهم بكثير من المذمومات والمفسدات القاتلة للعمران "[27]، مفاد ذلك " أن للدول والحضارات حتمية طبيعية تنتهي عندها، مثل حتمية أعمار البشر"، ومما يلاحظ على ابن خلدون أنه كشف السنة الإلهية في الكون كشيء حتمي لا كسنة يمكن السيطرة عليها، ففي نظرية الأعمار، كان ابن خلدون يتجه إلى قياس عمر الدولة، بمراحل تطور العصبية المكونة للدولة،حيث كشف ابن خلدون هذه السنة القدرية كشيء حتمي لا كسنة يمكن السيطرة عليها.

أشار مالك بن نبي إلى لحظة الانهيار الحضاري، حين تنحرف النفس عن مسارها التاريخي، ويصرف الإنسان نظره من عالم الأفكار، إلى عالم الأشخاص (مرحلة التكديس) بدافع الوَلَعٌ بزينتها دون البحث عن الماهية التي صنعتها، " من سنن الله في خلقه، أنه عندما تبزغ الفكرة وتشرق، يغيب الصنم، وحينما تغيب الفكرة، يبزغ الصنم. الفكرة تكون دائما ضد الصنم والوثنية ولا تبزغ فكرة إلا وتحطم الصنم، ولا تغيب فكرة إلا و يبنى في مقابلها معبد من الأوثان.

في تحليل مالك بن نبي لنظام الأفكار يتحدث عن مقبرة الأفكار وهي التي يستودعها المجتمع أفكاره الميتة، أي الأفكار التي لم يعد لها أي دور اجتماعي[28].

---

[23]- سورة آل عمران، الآية140.

[24]- سورة الإسراء، الآية 77.

[25]- سورة الجاثية، الآية 29.

[26]- سورة الإسراء، الآية 16.

[27]- أنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة.

[28]- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، 2002، دار الفكر، ص46.

إن بناء الحضارة وتحقيق النهضة لا يحصل باقتناء كل منتجات الحضارات الأخرى، فهذه الحضارات، بطبعها، لا تبيعنا روحها وأفكارها وثرواتها الذاتية وأذواقها، يقاس غنى المجتمع، في نظر مالك بن نبي، بمقدار أفكاره وليس بكمية أشيائه" تكون الحضارة منتهية، عندما يطغى عالم "الشيء" على "الفكر" عندما نحاول بناء حضارة من منتجاتها عوض أن تضع الحضارة منتجاتها، وتكون النتيجة لا حضارة ولكن ركام مكدس من الأشياء المشتتة[29].

لقد ميز مالك بن نبي بين "الأفكار الميتة " و" الأفكار القاتلة" هذه الثقافة الإمبريالية تنمو وترسخ في الفراغ الإيديولوجي الذي تعيشه الأمة، وقد قدم مالك بن نبي فكرته عن الأفكار الموروثة عن التراث الاجتماعي للمجتمع بمثابة جراثيم موروثة وفتاكة من الداخل وأما الثانية هي التي نستعيرها من الغرب[30].
إن أزمة العالم الإسلامي لم تكن أزمة وسائل ولكن أزمة أفكار، كما أن المجتمع الإسلامي مازال يعاني من عدم الثقة في الأفكار وربط بقاء ثقافة الاستعمار في المجتمعات الإسلامية ببقاء أنظمته الفكرية التي يدافع عنها وكلاؤه[31].

هل يمكن زرع أفكار مالك بن نبي وتوظيفها في العالم العربي بما تتماشى وعقيدته و تراثه من جهة، و التحديات العالمية (الحضارات الغربية التي تحمل قيما مغايرة لقيم مجتمعاتنا الإسلامية) التي لا زالت تجهض طموحاتنا في مثل ذلك التقدم والتطور المنشودين، لتحقيق تقدم يعتمد على التقنية ولكنه لا ينسلخ عن الدين الذي لا حياة للعرب بدونه كما يلاحظ ابن خلدون.
فما الدور الذي لعبه الدين ولا يزال يلعبه في رحلة العودة من جديد لبناء الحضارة، وهل يمكن تفعيل والاستفادة من أفكار ابن خلدون ومالك بن نبي لإحياء المبادئ الروحية للحضارة الإسلامية من جديد وبعث الحياة الحضارية إلى عالمنا الإسلامي.

قائمة المصادروالمراجع

1- سورة الرعد، الآية 11.
2- سورة الأنفال، الآية53.
3 - سورة الصف، الآية 2.
4- سورة التوبة، الآية 105.
5- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق،1987، ص209.

[29]– مالك بن نبي، مشكلات الحضارة " ميلاد مجتمع"، دار الفكر المعاصر للنشر والتوزيع، دمشق، 1986، ص37
[30] – مالك بن نبي، في مهب المعركة ، دار الفكر المعاصر للنشر والتوزيع، دمشق، 2002، ص 129
[31]– مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الفكر المعاصر للنشر والتوزيع، 2002، ص198

6- سورة الجن، الآية 16.
7- سورة الأنعام، الآية 115.
8- سورة آل عمران، الآية 110.
9- مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر المعاصر للنشر والتوزيع، دمشق، 1986، ص 66.
10- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص53.
11- سورة آل عمران، الآية 137.
12- سورة الإسراء، الآية 77.
13- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، لجنة البيان العربي للنشر والتوزيع ،القاهرة، 1965، ص466.
14 - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص 456.
15- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص146
16- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص186-187.
17- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، 1965، ص294. 1- سورة الأعراف، الآية 34.
18- سورة الحجر، الآية 4.
19- سورة آل عمران، الآية140.
20- سورة الإسراء، الآية 77.
21- سورة الجاثية، الآية 29.
22 - سورة الإسراء، الآية 16.
23- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، 2002، دار الفكر، ص46.
24 - مالك بن نبي، مشكلات الحضارة " ميلاد مجتمع"، دار الفكر المعاصر للنشر والتوزيع، دمشق، 1986، ص37
25 - مالك بن نبي، في مهب المعركة ، دار الفكر المعاصر للنشر والتوزيع، دمشق، 2002، ص 129
26 - مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الفكر المعاصر للنشر والتوزيع، 2002، ص198